

II

أ. د أحمد مقبل محمد المنصوري

- اللون في الشعر الأندلسي حتى نهاية عصر الطوائف

- إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، اليمن / 2004 ، في 289 ص.

- تقديم د. أحمد مقبل محمد المنصوري.

مثلما شكلت الألوان سرّاً من أسرار الوجود، ولغزاً تقوم عليه الظاهرة الكونية في صباحها ومساءها في أرضها وسماها ، بما يحكي عن قدرة إلهية بديعة، شكلت الألوان سرّاً من أسرار الفن الشعري الأصيل، طرّز بها جوانبه، وحملها الشعراء فيضا من تجاربهم ومواقفهم من الحياة والكون والناس من حولهم. إذ لم تعد مهمة الألوان أن تقف عند حدود البصر بل تعدت ذلك إلى مواطن الأسرار: أسرار النفس وأسرار الروح، تذكي القرائح، وتلهم الإبداع، وتعمق فاعلية التجارب الإنسانية وهي تصوغ أشواقها وأفراحها، أتراحها وآلامها للعالمين، كلماً خالداً مؤثراً .

لقد وجد الشعراء في الألوان خير موئل يمكن الفزع إليه للنهوض بأعباء تجاربهم النفسية البصرية فوجدوا فيها ما يغذي أغراضهم الشعرية ، إذ وجدوها في الممدوح معمقة لأصالة عرقه وطهر نسبه، وفيض ذات يده، ورباطة جأشه، ووجدوها شاخصة في حبيباتهم مُشكلة سحر جمال الوجه والخذّ والشفة والثغر والشعر، وهي في الطبيعة سحر روعتها، وجوهر الجمال فيها، وهي بعد ذلك منبع لتشكيل الصور الفنية تسهم في بنائها وتركيبها وتزيد في روعة آفاقها.

من هذه المعطيات السالفة تنطلق دراستنا اللونية التي أحببنا أن تكون في الشعر الأندلسي حتى نهاية عصر الطوائف، إيماناً منا بأن بيئة مثل الأندلس وقد أوتيت من الألوان أمهاها، ومن الثقافة العربية الأصيلة، بلغتها وأدبها، أعمقها جدرة بالدراسة

والبحث. وهذا ما دفع بنا إلى تتبع هذا الموضوع تحت عنوان : " اللون في الشعر الأندلسي حتى نهاية عصر الطوائف " .

ولا تعني هذه الفترة التي جعلت مسرحاً لدراستنا الوقوف أمام كل عصر من عصورها الثلاثة (الإمارة والخلافة والطوائف) على حدة ، إذ التوظيف اللوني لا يخضع لاختلاف هذه العصور ولا يمنحنا تميزاً يمكن أن يشكل انتقالاً أو مؤشراً يمكن الوقوف أمامه إلا في أحيان نادرة أشرنا إليها في مواضعها. ثم إننا قد ألزمتنا أنفسنا بهذه المدة وتسلسلها حين معالجتنا للون في الغرض الشعري . حيث أننا سرنا مع الشعراء بمختلف عصورهم منذ عصر الإمارة وحتى نهاية عصر الطوائف، وهو التزام جاء منسجماً مع معالجتنا لفاعلية اللون في الغرض الشعري. وهي المعالجة التي كشفت عن أن حضوره - أي اللون - في الغرض الشعري يتقارب في توظيفاته عند شعرائنا كافة، بغض النظر عن اختلاف عصورهم. وقد جاءت خطة الدراسة على هذا النحو :

المهاد النظري :

وقفنا فيه أمام محطات ثلاث رأيناها ضرورية ومهمة للانطلاق منها إلى آفاق الدراسة وهي :

1- تناص الفنون : وقد ألحنا خلال هذا العنوان إلى تداخل الفنون جميعاً فيما بينها في أكثر من زاوية ، وقد أفضى بنا ذلك إلى عنصر متولد عنه هو (الشعر والرسم) راصدين العلاقة بينهما على نحو أدق، ثم وصلنا إلى خاتمة المطاف وموضع القصيد (اللون في حيز الشعر) راصدين جانباً من أدواره التي سثبتها الدراسة فيما بعد .

2- لغتنا واللون: رأينا أن نتلمس من خلال هذا العنصر قطرات من فيض لغتنا الثرية بالمفردة اللونية واستعمالاتها المتنوعة بين الحقيقة والجاز . وكان من شأن هذا كله أن يشكل مرجعية لونية مهمة لا تنكر، وزاداً وفيراً لا يخفى .

3- اللون بين رافد التراث ورافد البيئة : واهتمنا بجانبين مهمين : أ- التراث بما قدمه من معايير ونماذج مثلى للتعامل الشعري مع الألوان .

ب- البيئة بما قدمت من فيض لوني زاهر سواء ما وهبها الله من ألوان أم ما أضافه إليها الأندلسي من جوانب لونية في العمران ومختلف العادات .
وبعد هذا التأسيس التمهيدي نصل إلى جوهر الدراسة حيث تم تقسيمها إلى فصلين :

الفصل الأول : درسنا فيه الأغراض الشعرية وقسمناه على هذا النحو : اللون والمدح ، اللون والغزل ، اللون والوصف ، اللون والطبيعة ، اللون والحرب ، اللون والخمر ، اللون وأغراض أخرى كالرثاء والشيب والهجاء .

وفي كل المباحث السابقة عمدنا إلى استقراء النماذج الشعرية وتحليلها بما يفي بالغرض ويعطي تصوراً واضحاً لفاعلية اللون فيه ، ولم نقف أمام الألوان الصريحة المعهودة بمسمياتها وحسب، وإنما وقفنا علاوة على ذلك أمام موحيات الألوان. ونضرب المثل باللون الأبيض الذي توحى به أشياء كثيرة كالشمس والقمر والبدن والهلل، وكذلك ما نجده من إيجاءات أخرى مثل الأغر والأزهر أو النور والضياء، وهكذا بالنسبة إلى بقية الألوان. وقد راعينا في ذلك سياق التجربة التي توحى بأن الشاعر كان يستدعي مثل هذه الموحيات لغرض يهدف من ورائه إلى إشباع ناحية معينة في اللون، برمزيتها أو إيجاءاته. وراعينا في اختياراتنا الشعرية المبدأ الزمني الذي وضعناه في عنوان الدراسة منذ الإمارة وحتى نهاية الطوائف. وقد تكررت أسماء بعض الشعراء في أكثر من موضع ليس لأننا ركزنا عليهم دون سواهم ، ولكن ذلك التركيز مرهون بثرائهم اللوني في أشعارهم، ولأنهم يعدون شهوداً على عصورهم فلم يمنعنا ذلك من أن نطرح أحكاماً تتعلق بذلك الجانب إن استدعى الأمر منا ذلك ، وفي أحيان نادرة لا تكاد تتجدش إيماننا العميق بأن التعامل مع الألوان لا يخضع - طوال مدتنا - لاختلافات جوهرية أو لافئة للنظر في القصيد الأندلسي خلال الأغراض الشعرية التي كانت أساس هذا الفصل .

أما الفصل الثاني : فقد خصصناه لـ (اللون والفن)، وقسمناه إلى مباحث أربعة :

بدأناها بمعجم لوني رصدنا خلاله طريقة الأندلسيين في استقاء مفرداتهم اللونية. وقد سارت في اتجاهين : الأول : تراثي غريب موغل في الغرابة ، والآخر بيئي قريب ومتداول.

ثم المبحث الثاني : اللون والتركيب ، تتبعنا خلاله دور اللون في تركيب البيت الشعري، والمقطوعة الشعرية ثم القصيدة بتعدد أغراضها أو بغرضها الواحد ، وعلى المستويين معاً : مستوى البناء ومستوى الإيحاء.

ثم المبحث الثالث: اللون والصورة ، الذي رصدنا خلاله دور اللون في التشكيل الفني. وقد تناولنا ذلك الدور حسب هذا التقسيم :

أ- اللون في حيز الصورة التشبيهية .

ب- اللون في حيز الصورة الاستعارية .

خ- اللون في حيز الصورة الكنائية .

د- اللون في حيز التضاد .

هـ- اللون في حيز التراسل الجواسي .

ثم المبحث الرابع : اللون والصوت ، وقفنا فيه أمام نماذج صوتية نغمية لاستعمال المفردة اللونية، كان لذلك الاستعمال أثره الإيحائي، فاستعمال المفردة اللونية بصيغة معينة كأن تُضعف حروفها أو تفلّك ، أو حين تُسخر لوزن معين، يحيل إلى إيحاء تفرضه التجربة وتسخره لذلك الاستعمال. ثم وقفنا أمام الجناس ورد الصدر على العجز ونماذج للتقسيم كان لها دور نغمي في إطار تشكيل النغم الأكبر للبيت . وتوقفنا أخيراً أمام تساؤلات عن الوزن والقافية خلصنا منها إلى القول بأن الألوان يمكنها أن تمتطي أي بحر بحسب ما يتوافر للشاعر من موهبة قادرة على السبك والصوغ . وأشرنا أخيراً إلى أن القافية الرائية والهمزية هي من أكثر القوافي استلهاماً لأكثر عدد ممكن من الألوان بسبب أن أكثر الألوان تنتهي بما تنتهي به القافيتان : الرائية والهمزية .

بما أنّ هدفنا التركيز على الجانب الفني بغية التحليل وإبراز جوانب الإيحاء والجمال اللوني في التشكيل الشعري، اكتفينا ببعض النماذج التي تلي غرضنا، وتساعدنا على تأسيس تصور قد يكون مقبولا إلى حد ما. ولم نلزم أنفسنا بالتسلسل الزمني لاستشهادات الشعراء لأن هدفنا فني.

ونشير إلى أن دراستنا قد صادفت شعراء مخضرمين بين عصر الطوائف - نهاية مدة الدراسة - وعصر المرابطين - خارج دراستنا. وقد استشهدنا بشعر بعض الشعراء المخضرمين ومن بينهم: ابن اللبانة ، وابن الجزّار السّرقسطي، وابن عبدون، وابن حمديس، وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وابن خفاجة.

وكان اعتمادنا في المادة الشعرية على الدواوين المجموعة والمحقة والمصنوعة أولا ثم مصادر الأدب الأندلسي الكبرى على نحو أقل وبما استدعته الحاجة ، وقد تنوعت مصادرنا عموماً بين تاريخية ونقدية ، قديمة وحديثة ، أدبية ولغوية، تشكيلية ونفسية.

وقد أفدنا مما قدمته الدراسات اللونية سواء ما كان منها كتباً أدبية، أم لغوية تمس اللون والشعر أو اللون واللغة أم كان رسائل علمية أم مقالات في دوريات متنوعة أشرنا إليها في مواطن الاقتباس منها .